المحاضرة العاشرة

المنهج النفسي:

عرف المنهج النفسي في مطلع القرن العشرين مع تأسيس علم النفس التحليلي على يد فرويد، وصدور دراساته، وفي مقدمتها (تفسير الاحلام)، تلك الدرامات التي كشفت عن قوى النفس الثلاث الانا والهو والانا الاعلى، واثر اللاشعور في سلوك الانسان ومختلف نشاطاته، والعقد والامراض النفسية التي تصيب الانسان مثل انفصام الشخصية والنرجسية وعقدة اوديب.

لكن جذور التيار النفسي في الدراسات النقدية تمتد الى زمن بعيد فعلى سبيل المثال، فطن ارسطو الى العلاقة القائمة بين الادب والنفس الانسانية، ورأى للمسرحية (المأساة) – كما عرفنا– وظيفة نفسية سماها (التطهير) وقصد به ان مشاهدة المأساة تثير عند المتفرج عاطفتي الشفقة والخوف ومن ثم يتخلص منهما أو يتطهر ويحل الاعتدال والاتزان محل الاسراف والحدة في عواطفه وانفعالاته.

وفي الوقت نفسه يعد الناقد الفرنسي سانت بيف من الممهدين لظهور المنهج النفسي وذلك لأنه ربط بين حياة الاديب وشخصيته ونتاجه، وذهب الى اننا اذا استطعنا ان نكتسب معرفة بحياة الاديب والمؤثرات الرئيسية فيه، امكننا ان نصل الى فهم صحيح لإثاره الادبية، كتب فرويد واتباعه عدداً من الدراسات النفسية في الفنون والاداب، شخصوا فيها الصلة الوثيقة بين شخصيات الفنانين والادباء وخصائص نتاجاتهم، واستخدم الفرويديون العمل الفني على انه وثيقه يكشف تحليلها عن القوى النفسية اللاشعورية في شخصية الفنان، كما ربطوا بين العمل الفني وما يعرف أو يستنتج عن التكوين النفسي للفنان، وبعبارة اخرى سلك الفرويديون في دراساتهم مسلكين، أما الاول فهو استخدام العمل الفني وثيقة نفسية لدراسة وفهم شخصية الفنان وما فيها من عقد وامراض، وأما الثاني فهو اتخاذ شخصية الفنان أو نفسيته وسيلة أو اداة لفهم وتفسير العمل الفني، (ومن الواضح ان النظرة الاولى لا تهم الا علم النفس، أما النظرة الثانية فكثيراً ما كانت ذات نفع جزيل في النقد التفسيري، وخاصة عندما تكون رمزية العمل غامضة أو ملتوية، بل أن اعظم ما اسهمت به الفرويدية قد يكون اظهارها لثراء المضامين الرمزية في اعمال متعددة، والمعاني الكامنة الخفية التي انبثقت منها، وقد تمكنت الفرويدية من اظهار ذلك عن طريق كشفها لاصول هذه الرموز في حاجات الفنان ودوافعه النفسية).

لعل اوضح مثال على ذلك تفسير المنهج النفسي لمضامين روايات كافكا مثل (المحاكمة)، و (القلعة)، في الاولى يلقى القبض على بطلها ذات صباح ولا يعرف الاتهام الموجة اليه، وهو لا يسجن ولا

يقدم للمحاكمة، لكنه هو نفسه يبذل كل جهد لمقابلة من يتهمونه ومواجهتهم، غير انه لا يتمكن من ذلك ابداً، وفي النهاية يأتي جلادوه لأخذه فيسير معهم طائعاً مختاراً ويطعن في مقتل ويموت–كما يقول، كالكب، وفي الرواية الثانية يعتقد البطل بأن السلطات في (القلعة) طلبت اليه ان يقبل وظيفة مشرف غيها، فيرحل الى المدينة التي تقع فيها القلعة اعلى المدينة، وتنتهي محاولاته لمقابلة من هم اعلى منه بالإخفاق، لكنه لا يستسلم، بل يثابر من اجل الوصول الى من في القلعة، غير ان اخفاقه يستمر، وأخيراً يموت دون ان ينجح في تحقيق هدفه.

إن هذا المضمون الرمزي لكلتا الروايتين يمكن ان يفهم في ضوء رسالة كتبها كافكا الى ابيه، شخص فيها بأمانة مؤلمة ودقة شديدة علاقاته بأبيه منذ الطفولة، اذ وصفه فيها بأنه صريح وقوي، كما رسم صورة لنفسه قال فيها انه منطوٍ على نفسه ولا جدوى منه، ولما كان الاب على ما هو عليه، فأنه كان يطلب الى ابنه مطالب لا يستطيع كافكا ان يحققها، لهذا يخاطبه في رسالته بقوله انك بوصفك أباً (كنت اقوى من اللازم بالنسبة إلي)، ومن هنا كان ذلك الرعب الهائل الذي بثه ابوه فيه، ولما كان كافكا يعترف بالتزاماته نحو أبيه، فإن اخفاقه خلق لديه احساساً بذنب لا حد له، ويشير كافكا في رسالته الى حادثة وقعت له في السنوات الاولى انطبقت في ذاكرته انطباقاً مباشراً (ظللت في احدى الليالي انادي طالبا ماء، وأنا واثق ان ذلك لم يكن راجعاً الى انني كنت عطشان، بل ربما كنت من جهة اريد ان اضايق الناس وكنت من جهة اخرى ان اتسلى، وبعد ان اخفقت عدة تهديدات قوية وجهتها إلي، انتزعتني من السرير وخملتني الى الشرفة وتركتني هناك بعض الوقت في جلباب نومي خارج الباب المغلق... واستطيع ان اقول انني اصبحت مطيعاً تماماً فيما بعد.. ولكن ذلك أضر بي داخلياً، ذلك لان الامر الذي كان في نظري مسلماً به، وهو المطلوب الذي لا معنى له للماء، والخوف الشديد من ان احمل الى الخارج، كانا شيئين.. لم استطع ابداً ان اربط بينهما ربطاً صحيحاً، بل إنني حتى بعد سنوات كنت اقاسي من خيال يؤرقني بأن يأتي ذلك الرجل الضخم، أبي، وهو السلطة النهائية، وينتزعني من سريري في الليل لغير ما سبب، ويحملني من الشرفة، وكنت اتصور بالتالي انني مجرد لا شيء بالنسبة إليه..).

لعل هذه الواقعة تساعدنا على تفسير روايات كافكا، أو تعطينا في الاقل نقطة بداية، فلننظر الى السلطات في الرواتين على اساس انوذج الاب كما وصفه كافكا، عندئذ نرى الراويتين تعبران عن حقائق تتعلق بالسلطة الاجتماعية، فالنظم التي تمارس السلطة على البشر لا معقولة، لا يوجد اساس مشروع لسلطتها، وهي تمارس ضغطها بطريقة تفتقر الى العقل، وحتى القانون الذي يحاول ان يكون دقيقاً وشكلياً والذي يحاط بمظاهر الجلال والاحترام الذاتي، لا معنى له في نهاية الامر، واعمال كافكا ليست نقداً لنظم اجتماعية حسب، وانما تصوير لاستجابة البشر لنظامهم، فهم لا يديرون ظهورهم الى السلطة على الرغم

من ان فهمها مستحيل وميثوس منه مثل العلاقة بيبن الاب والابن فعواطف الابن تتجه بعمق الى ابيه ولا تتحول عنه، مهما فعل الاب ومهما كان طاغياً ومستبداً، والدليل على ذلك ان الابن يشعر بالإثم اذا لم يتمكن من تلبية مطالب ابيه.

ومثل ذلك تفسير فرويد لرواية (الاخوة كارامازوف) في ضوء عقدة أوديب، والعلاقة بين مقتل الاب في الروية ومصير اب دستويفسكي نفسه.

كما تناول المنهج النفسي مسرحية شكسبير (هاملت) وفسر طبيعة هذه الشخصية الغامضة في ضوء عقدة أوديب أيضاً، فظهر هاملت مصاباً بهذه العقدة.

من هنا لا يستطيع ان يثأر لأبيه من امه وعمه اللذان قتلا الاب، فهاملت لم يقتل الام لأنه كان يحمل في لا شعوره تجاهها عاطفة اثيمة مكبوتة، كما لم يقتل العم لأنه لو قتله فكأنه يقتل نفسه، وهكذا يظل متردداً بين الاقدام والاحجام، ويتظاهر بالجنون حتى يعفي نفسه من القيام بواجب الثأر، على الرغم من يقينه بأن عمه هو قاتل أبيه.

على الرغم من تقديم المنهج النفسي انجازات مهمة في تفسير بعض الاعمال الادبية والفنية الغامضة، يراه نقاد كثيرون منهجاً قاصراً لا يغني الادب والنقد، وذلك لأنه يعني اساساً بالمضمون دون الشكل الادب، فلا يصلح من ثم لتقويم الادب وايضاح جمالياته، (إن الفرويدية تعاني من نفس مظاهر القصور وسوء الاستعمال التي تعاني منها بقية مدارس النقد السياقي.. فنظراً الى كونها نظرية في علم النفس لا نظرية جمالية، فإنها مهيأة على افضل نحو لمعالجة عناصر العمل الفني ذات الدلالة النفسية، وهي تؤكد الموضوع والرمز والفكرة وجميع عناصر العمل التي ترتبط بحوادث نفسية خارج الفن، والتي يمكن معالجتها بمفاهيم علم النفس، وهي في الوقت ذاته غير مهيأة نسبيا لمعالجة الشكل والاسلوب والتكتيك الفني، وهي كلها عناصر يتفرد بها جمال الفن، ويترتب على ذلك ان الفرويدية، شأنها شأن الانواع الاخرى من النظرية السياقية، لا تكفي لإصدار نقد تقديري، فلما كانت تبحث أساساً في المضمون الفني الذي هو مجرد جزء من العمل الفني فأنها لا تستطيع اصدار حكم شامل على القيمة الجمالية للعمل).

في النقد العربي استخدم المنهج النفسي نقاد منهم محمد خلف الله في كتابه (من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده)، وعباس محمود العقاد في (ابو نواس)، ومحمد النويهي في (ابو نواس)، أراد العقاد في كتابه عن ابي نواس ان يفسر بوساطة نظريات علم النفس ظاهرة الشذوذ والنرجسية عند الشاعر متتبعاً حياته، فعزا ذلك الى صفاته الجسمية والشكلية ونشأته، فقد عرف الشاعر بأنه كان حسن الوجه، وناعم الجسم، الثغ بالراء، وفي صوته بحة، أما ما يخص

نشأته فقد تلقى الشاعر تربية سلبية على يد أمه، عمادها التدليل، يقول العقاد أن (من اسباب التدليل التي احصاها أطباء الامراض النفسية ان تشتهي الام أن ترزق بنتاً لغربتها أو وحدتها واقترابها من الشيخوخة التي تحتاج فيها الى عناية المرأة، فترزق ولداً ذكراً، بدلا من البنت التي تتمناها، ويحدث في هذه الحالة انها تربي الولد تربية البنات تسلية لها ومغالطة لأمنيتها، وليست هذه الامنية بعيدة عن خاطر امه لأنها كانت امرأة من قرى الاحواز تزوج بها هانيء وهو في جيش الامويين، ثم نقلها الى البصرة بعد قيام الدولة العباسية، فجاءتها وحيدة منقطعة عن اهلها وجعلت تعيش في موطنها الجديد بإرضاع الاطفال وصنع الجوارب وبيع الملابس لنساء البيوت).

المصدر:

-السيد سين: التحليل الاجتماعي للادب، دار التنوير، بيروت بدون تاريخ.